

مقدمة

خصائص الفكر الشرقي والغربي :

إن من يتناولون فلاسفة الشرق بالدراسة ، بعد دراسة عميقة للفكر الغربي - لا بد أن يسترعى انتباههم مظهر واحد بارز ، إذ إنه في الوقت الذي نجد فيه عدداً كبيراً من فلاسفة الغرب ، وخاصة في العصر الحديث ، يسهبون في شرح مسائل فنية دقيقة ويظهرون أنهم يتجنبون العموميات حول الكون باعتباره كلا ، نجد أن فلاسفة الشرق لم تغب عن نظرهم قط المسألة الأساسية ، أعني تلك التي تتناول معنى الحياة والغرض منها . ومن أقدم التأملات الفلسفية الملازمة في كل من « الفيداس » و« اليوانيشادات » الهندية ، إلى حكماء الهند المعاصرين ، استمر البحث بدون توقف لاسعياً وراء المزيد من اليقين بقدر ما هو بحث عن الحقيقة . كما أن هذا الانشغال لم يكن وقفاً على قلة قليلة من الناس ، لهم تفردهم وعلمهم أو ورعهم في كل جيل ، بل فرض نفسه على عقول ملايين ممن هم نكرات صابرون كادحون ، ممن يعج بهم الشرق ، من وجهة نظر الغرب . ومن ثم كان هذا التمييز الذي كثيراً ما يستشهد به والذي يلقى قبولاً من الجميع ، بين «مادية الغرب» و«صوفية الشرق» .

وإذا ما انتقلنا لنفحص عن قرب فكر فلاسفة الشرق نجد أن مثل هذا التعميم في حاجة إلى وصف وتحديد : فالفكر الشرقي له مظهره المادي تماماً مثل الفكر الغربي الذي له عصبه القوى في الصوفية ؛ بل أكثر من هذا ، إن أعظم صورة للمادية مثل ما يتضمن إنكار حقيقة المادة نفسها ، من المحتمل ، عن طريق رد الفعل ، أن تستحيل إلى ضدها : فثلاً النظرية التي تنكر وجود الجسم البشري تبين بالبحث أنها تهتم إلى حد كبير بالحفاظ على الصحة البدنية . وصوفية البوذية ، وهي من المفروض عنها بوجه عام أنها من بين أنقى وأسمى صور المثالية ، مرتبطة بنظرية المعرفة التي قد ترضى أعظم الماديين أو الوضعيين الغربيين صلابة في الرأي ؛ وأخيراً ، على غير شك كلة كنفوشيوس العادل النبيل ، يمكن للشرق أن يخرج أكثر من مفكر «أخلاق»

مشهور تتجاوز «كليته» ودهاؤه حدود أى شيء نادى به مكيا فيللى Machiavelli نفسه^(١) وتلك العناصر المشتركة بين كل من الفكر الشرقى والفكر الغربى لابد أن تؤكد لنا الاعتقاد الذى كثيراً ما أنكر أن العقلية البشرية فى أى مكان واحدة ومتشابهة ، أو على الأقل ، تعمل بالطريقة نفسها ولهذا ، يجب أن نتجنب المغالاة فى الفوارق ، والقول بأن قرماً من آدمان وزارعاً فى ميدلويس فى الولايات المتحدة الأمريكية لابد أن يتبعاً منهجاً منطقياً مختلفاً ، أمر لا يمكن تصوره ، برغم أنه من الواضح أنها يبدأان من بديهيات مختلفة جداً . إن ما يضى على دراسة الفكر الشرقى سحره الخاص به هو حقيقة أنه ليس مجرد كونه أعرق قدماً من الفكر الغربى بل لأنه يعبر عن استمرار أبعد . وفى استعراضنا لتاريخ الفكر البشرى الطويل نلاحظ أن البحث الفلسفى الغربى ما هو إلا مجرد فرع ؛ برغم ازدهاره ، من شجرة العائلة الشرقية ، تماماً كما أن أوربا (كما جاء فى عبارة بول فاليرى Paul Valéry) ما هى إلا مجرد قبة دقيقة ناتئة من آسيا . وهذا بلاشك هو السبب فى أن المفكرين الأوربيين أمثال تشيلنج Schelling وشوبنهاور Schopenhauer وجوته Goethe وتولستوى Tolstoy قد أدهشهم ، عند بدء تعرفهم على الفلسفة الشرقية عمقها المذهل ، وهى فى الواقع عميقة ؛ وعمقها هو ذلك العمق الذى هو نتيجة أن لها جذوراً عميقة .

متطلبات الفكر الشرقى :

لقد كان الاستمرار غير العادى للفكر الشرقى ، وطول التقديس لتقليد التأمل فى القيم الأساسية مسئولين عن رأى آخر مألوف ، أعنى أن الفكر الشرقى ، بالضرورة ، فكر ثابت . وهنا نجد مرة أخرى أن العبارة قد يكون لها معنى لو طبقت على هيئة صناعية ، أو أساليب صحية أو حتى فى التعامل الدبلوماسى ، وهى تتطلب خاصية هامة عند تطبيقها على المفهوم الشرقى للحياة ، وذلك المفهوم ليس ثابتاً . لقد كان أفضل ما وصف به هو أنه متناسق وأنه لا ينكر الثبات ولكنه بالأحرى تلازمه فكرة التكرار السردى . ومحاولة تحديد ذلك الذى كان سبباً فى الأصل فى نشأة التأمل الفلسفى فى العالم ، ومتى اتخذ أولاً صورة منتظمة ، هى

(١) أمثال : كوتيليا تشاناكيا Kautilya Chanakya (مستشار الحاكم الهندى تشاندراجويتا Chandragupta)

(حوالى ٣٢٢ - ٢٩٨ ق . م) وكذلك يانج تشو Yang Chu (حوالى ٣٩٠ ق . م . . وهسن - نزي Hsun-Tze) (٣٠٥ - ٢٣٥ ق . م . وبالنسبة للأخير ، انظر : الفصل السابع من هذا الكتاب :

بلا شك لعبة خطيرة ، وربما كانت لعبة عديدة الجدوى ، ولكن فيما له صلة بالشرق فإن عملية تولد الحيوان والبشر ، وتناسق البذر والحصاد ، وبالمثل المعجزة اليومية معجزة بزوغ الشمس وغروبها ، قد تبدو أنها أوحى على الأقل بمبدأ ميتافيزيقي قديم ، أعنى تناسخ الأرواح . هذا المبدأ أبقى عليه الفكر الهندي منذ قدم عريق^(٢) ، وفي تقبله بلا نقد أو برهان ، سعى مجددون أمثال : جوتاما بوذا Gotama Buddha فحسب ، إلى تعميق معناه وفرض وسائل للتقليل من أهواله ؛ لأنه مبدأ مروع جليل في وقت واحد ، كما أنه لم يوفق متشكك مثل مهافيرا Mahavira ، مؤسس الديانة الجينية Jain Religion (٥٩٩ - ٥٢٧ ق . م) في التخفيف من تأثيره على عامة الشعب ؛ لأنه على أية حال أليس مبدأ التناسخ سوى اعتقاد بأن القانون الذى يطبق تقريباً على كل شيء في الطبيعة يطبق بالمثل - وربما بصورة فائقة - على روح الإنسان ؟

وهكذا زاد انشغال الذهن الشرقى تماماً بهذا الرأى من التجسد الثانى ، أو التجدد السرمدى للنفس البشرية في عدد لا ينتهى من الصور ، حتى بات العمل الأساسى لكل نبي شرق عظيم هو أن يوضح أن مثل هذا الرأى المتواتر غير المحتمل كيف يمكن تجنبه . ولما كان مثل هذا الشر العظيم من الصعب توقع إذعانه لأى علاج مبكر ، فلقد كان هناك إحساس بأن انعدام الرغبة - إن أمكن على الإطلاق أو حتى لو أمكن فقط بعد تجارب متكررة - لم يكن ثمناً غالياً يدفع مقابل التحرر النهائى من الشعور بالوجود وبدلاً من أن يهدى مبدأ الهدوء من روع الفكر الشرقى ويسكته ، لم يكابد هذا الفكر إلا منه ، وإن ما يظل الحكيم الشرقى أو الفقير الهندي على علم به بوضوح تام ، على الأقل مثل هذا الجانب السماذى Samadhi^(٣) ، هو عاصفة وضغط الغريزة والعاطفة والرغبة . ولا يتحدث الناس دائماً عن السلام الداخلى إذا كانوا يحسون به بالفعل على أنه ملكية لا يمكن التصرف فيها . وفي تاريخ الفكر الغربى هناك شيء اسمه فلسفة وشيء اسمه لاهوت ، وكان من الممكن دائماً ، اللهم إلا خلال فترات معينة مثل فترات العصور الوسطى ، التمييز بين الاثنين ، ولكن في تاريخ الفكر الشرقى هناك فقط شيء اسمه لاهوت ، وهذا صحيح حتى فيما يتصل بالفكر

(٢) نجد تحليلاً لبعض الأسباب التى لا بد أن جعلته يشغل أذهان الشرقيين لفترة طويلة ، في الفصل الخامس من هذا

الكتاب .

(٣) هى حالة التحرر النهائى من الشعور بالوجود ، انظر الفصل السادس من هذا الكتاب .

الإنساني عند كنفوشيوس ، الذى هو مجرد مبدأ أخلاقى ، صار منفصلاً عن الدين مقدماً ما يبرر ذلك . والفلسفة إذا ما طلبت باعتبارها لعبة علمانية ، تكنيك يمكن اكتسابها فى جامعة أو ندوات غير دراسية ، كوسيلة تتيح لطالب العلم أن يكون قديراً فى مناقشاته ، ليست مجرد إنتاج غربى ، بل هى إنتاج حديث العهد تماماً . وفى الشرق من المحال أن تكون فيلسوفاً دون أن تكون حكيماً أيضاً . وفى الغرب ، فإن الأمر ليس بمتاح فحسب ، بل هو أمر يوصى به بدرجة عظيمة لأنه من الصعب أن تكون حكيماً فى أوروبا ويقل دخلك عن بضعة آلاف من الجنيهات سنوياً .

الفلسفة والأسطورة :

برغم ما أكدناه من عدم جدوى السعى فى شرح أصول الفكر الفلسفى ، فليس من غير المعقول أن نفترض ، أخذاً برأى الفيلسوف الإيطالى جيامبا تيستا فيكو Giambattista Vico ، أن مثل هذا الفكر أو مثل هذه المناهج الفكرية نشأت فى محيط الأسطورة^(٤) ، وهناك سبق منطوق إن لم يكن هناك سبق زمنى ، للخيال على التفكير ، وكلما بقيت الفلسفة على ارتباطها بالدين أو بالتصوف فستظل مقترنة بالأسطورة . وفى الفكر الغربى حدث الانفصال بين الفلسفة والأسطورة على الأقل فى وقت مبكر وقت مخالفة أرسطو لأفلاطون ؛ ولاشك أن الأهمية التى احتلتها الأسطورة فى فلسفة أفلاطون قد دفعت بعدد من المعلقين إلى افتراض أنه كان مستغرقاً فى علوم الشرق ، بل إنه قد قام برحلات سرية إلى بابل وفارس . وتتطور الفلسفة الغربية ، ملأت المسيحية الثغرة التى خلقها إقصاء الآلهة الوثنية أو على الأقل عودتها «سراً» ، كما حدث .

وفى نهاية العصور الوسطى ، عندما بدأ التأثير العقلى للعقيدة المسيحية فى التناقص عاد الباعث الأسطورى البحث يؤكد وجوده ، ولكنه صار بعد ذلك مقترناً بمغامرات البطل العلمى الجديد المسمى المادة Matter ولاشك أن الباعث الفلسفى الذى سمي تسمية صائبة ، أعنى التقصى التزيه للأسباب والعلل والبيئة ، قد اتخذ نشأته أول ما اتخذ من صراع الأسطورة

(٤) للتوسع فى دراسة هذا الموضوع أحيل القارئ إلى مقال غاية فى الطرافة عنوانه «الأسطورة والحقيقة Myth and Reality» نشر فى مجلة بعنوان «قبل الفلسفة Before Philosophy» إعداد فرانكفورت (سلسلة بنجرين ، ١٩٤٩).

القبلية ، سواء نتيجة لغزو ، أو امتزاج طبيعي دفاعاً ضد الإنسان أو الطبيعة ، أو ارتحال أو زواج خارج العشرة Exogamy . ومطالب الآفة التنافسة ، وقتها ، كان لا بد من مناقشتها وتقييمها في محاكم البشر . وإغناء تطوير القدرة البشرية على الاستدلال هي نتيجة التكاثر المقدس . ومما يضلل مؤرخ الفكر الغربي هو أن يعزو الصفات العقلية الخاصة بالأيونيين وحبهم للاستطلاع والبحث ، إلى عامل البيئة والبيئة وحدها . والبيئة الآن كلمة شاملة . ولسنا على يقين تام بالقدر الذي قُصد بها أن تشملها ، ومع ذلك ، فلو أن البيئة تعني فحسب الظروف الجغرافية ، إذن فلن تكون هذه الظروف أبداً «علة» في أى معنى صحيح للكلمة . وتوكيد أن الإنسان ثمرة ما يحيط به هو القول بأنه جزء منه ؛ ففي هذه الحالة ليس هناك شيء إيجابي يحاط به . والبيئة بالمعنى الدقيق هي علة ما يختاره الإنسان ليكتشف كنهه . وعند ما شد الإغريق الرومانيكي اهتمامنا إلى المجال الوجداني للريف والشاطيء الإغريقين موحياً أنه بمثل هذه الدقة والوضوح لما رسمه والجو «الإلهامي» الذي صورته قد أمد المفكرين الأيونيين الأولين بالهام مباشر ، فإنه يعجز عن أن يفسر كيف أنه اعتباراً فقط . من طاليس الملطي في القرن السادس ق . م ، بدأ الإغريق بالفعل في الاستجابة لهذه الصورة الخاصة من الإشارة . وكانت المجتمعات التي تعيش في ظروف لا تقل ملاءمة ، قد عرفت بأنها تغط في سباتها كما كانت عاجزة عن القيام بأية إنجازات ، وامتزاج الأجناس ، ونمو التجارة وخبرة الملاحة البحرية - لعل هذه هي العوامل الحاسمة في ظهور روح البحث عند الأيونيين ، لأنه كيف لأناس قاموا باتصالات على التوالي مع المصريين والفينيقيين والكلدانيين والبابليين ، وهي شعوب متباينة في عاداتها ولغاتها وأنماط حياتها ، كيف يمكن أن يفشلوا في عقد مقارنة مع بعضهم بعضاً ، وبعد المقارنة يصدرن حكماً ، وبعد إصدارهم الحكم يقومون بالتنسيق ؟

الرؤية الموحدة :

لهذا ينبغي علينا أن ننظر إلى الفكر الغربي على أنه النقطة التي يقترن فيها الخيال الشرقى بالعمل ، تماماً مثل الكنائس المسيحية التي هي المظهر العملي للتصوف الشرقى . ونمو العلم التطبيقي هو بالمثل اقتران حتمى للدراسة الفلسفية الغربية ، لأننا لا نستطيع أن نعمل إلا في عالم تؤمن بأنه واقعي وجددير بالعيش فيه معاً ، واليوم ، فإن صفات مثل الواقعية والقيم هي تماماً تلك الصفات التي يرفض الفكر الشرقى ، مع استثناءات معينة ، أن ينسبها للعالم الطبيعي .

والمثل ، نجد أن فلاسفة الغرب ، باستثناء قلة قليلة منهم (مثل شوبنهاور) يفترضون أن أول واجب من واجبات الإنسان هو أن يرى حياته الواعية ، ويزيد من إدراكه لعالم الحس ، بهدف تحقيق سيادته على بيئته . وبمقارنة الوضع في الشرق نجد فيها يتصل بالهندوسية والبوذية ، أن الهدف هو تحقيق الهروب من الوعي ، وطمس إدراك النفس ، والتشكك حتى للدرجة إنكار واقعية عالم الحس ، ويستثنى من ذلك الفكر الصيني ، الذي هو في جملة فكر فردى ، إنسانى ، يكاد يكون أنانياً ، ويتمركز حول الأسرة بكل تأكيد . كما أننا لا يمكننا أن ننكر التفاوت بين الحكيم الهندي أو الفقيه الهندي ، الذي بعزله التامة وغرابته بوجه عام ، قد يأتي عليه يوم ويتخذ لنفسه نفس الفردية التي يناضل في صلابة وعناد للتخلص منها .

وفي الفصول التالية سنأخذ على عاتقنا القيام بعملية مسح لتاريخ الفكر الشرقى من أقدم العصور ، متخذين كعلامات لنا على الطريق كبار الشخصيات التي استحققت ، أكثر مما استحققت في الغرب ، لقب الزعماء والحكام ، ومنهم عدد كبير يبدو أنهم أكثر من إنسانيين في شخصياتهم ؛ وقليل منهم كادوا يكونون خليطاً من بشر وقديسين . لقد اتجه العقل الغربى إلى فصل القدرات المختلفة للإنسان ، تماماً كما فصل العلوم وفروع الأدب ، ومختلف الحرف والمهن . فقد يكون الإنسان شاعراً أو براد طائرة . وعلم الأحياء علم بكل معنى العلم ، وهذه المقطوعة الشعرية شعر وجدانى . ولدينا معايير يمكن أن نرتب فيها كل شيء ، وتكون المعرفة أحياناً مماثلة فحسب للقدرة على قراءة البطاقات . وقد نحلى الشرق عن هذا الاتجاه نحو الفصل ، ففلاسفته في آن واحد شعراء وسلوكيون وساسة . وديانته مزيج من الأسطورة الشعرية والمنطق الدقيق ، والمعرفة أكثر من جمع المعلومات ، فهي لون من الحكمة التصويرية ، ونحن في العالم الغربى قد ظللنا أمداً طويلاً جاهلين بهذه النظرة الموحدة .

فجر العقل :

كتب توماس بين Thomas Paine في عصر الثورة الفرنسية ، معبراً عن إيمانه بأن «فجر العقل» قد لاح في أوروبا وأن ليل الحرافات الحالك قد ولى أخيراً^(٥) .

فتى كان أول «فجر للعقل»؟ هذا سؤال لم يتوقف قط عن أن يحير المؤرخين

The Rights of Man (1791).

(٥) انظر حقوق الإنسان (١٧٩١) .

والأنثروبولوجيين والفلاسفة وعلماء النفس . لا بد أنه حل ، لو كان هذا التعبير صحيحاً كل الصحة ، قبل أقدم تاريخ تسجيلي بوقت طويل ، لعله كان أقدم من مثل ذلك العهد السابق للتاريخ كما يمكننا أن نستنتج مما رسم على الصخور ومن الآلات المستعملة ومن النصب التذكارية أو المدافن القديمة . لقد كتب « فولتير Voltaire » في « مقال عن العادات » Essai sur les Moeurs : « أريد أن أعرف ما هي المراحل التي مر بها الناس من حالة الوحشية إلى حالة التحضر » ، ونحن جميعاً ، في الحقيقة نريد أن نعرف ذلك ، إذ بالرغم من التقدم العظيم في التنقيبات الأثرية الذي مكنتنا من إمالة اللثام على الأقل عن ست حضارات - أعنى المصرية والسومرية والبابلية والحيثية والكريتية والدرافيدية - لم تقترب من الإجابة على هذا السؤال أكثر من اقتراب فولتير منه ، إذ أن كل ما نعرفه فحسب هو كم عدد السنين التي علينا أن نعود بها إلى الوراء - لنكتشف أن الناس كانت لهم بالفعل حضارة ما . وبرهان الفن يرهان مضلل ، فصور الكهف بل حتى النحت في العصر الباليوليثي أو العصر الحجري القديم (من حوالي ١٠٠,٠٠٠ ق . م .) يعد رفيع المتزلة لو حكنا عليه بالبرهان الراهن بمقارنته بأي شيء أنتج خلال العصر الحجري الحديث (حوالي ٥٠٠٠ ق . م .) اللهم فيما يتصل بالفخار ؛ ولا تعد رسومات كهف « دوردوني Dordogne » و « الأندلس » قطعاً فنية رائعة فحسب ، بل هي بوضوح جزء من تقليد له بالفعل بعض القدم ، ولا يمكننا أن نتصورها سواء على أنها هوايات « منفصلة » أو أعمالاً لبعض العباقرة غير العاديين . ومن المحتمل أن تكون أعمال العباقرة قد اندثرت ، وأن هذه هي فحسب الجهود التقليدية لرسامين كانوا يؤجرون باليومية .

وبالنسبة لأقدم كتابة ، يجب علينا أن نتحدث بتحفظ مماثل . وسواء استخدمت الكتابة أول ما استخدمت لتسجيل الأرقام مرموزاً إليها بشرط مستوية أو على شكل أصابع ، أم كانت مجرد تجريد من نوع من أنواع الكتابة التصويرية للإشارات مثل الكيو - وان Ku-Wan الصينية ، فإننا يمكننا أن ندعى ، ونحن على صواب ، أن تطورها إلى حد الكمال يفترض مسبقاً وجود حضارة جديدة بالاعتبار غير مكتوبة ، غير مسجلة ، سابقة للحضارة التي عرفت الحروف الأبجدية . وتعتقد شخصية لها مكانتها العالمية : دكتور ديفيد ديرنجر Dr. David Diringer أن حروف الهجاء كما نعرفها اليوم لا بد أنها اخترعت في منطقة فلسطين سوريا حوالي منتصف الألف سنة الثانية ق . م ، ولكن المصريين كانوا

يستخدمون حروفاً أيجدية في وقت مبكر عن ذلك ، (حوالي ٣٠٠٠ ق . م) . أما عن أن الكتابة كانت في الأصل فناً أو مهنة عند الأقلية أو على الأقل لتسجيل الموضوعات الغامضة والمختارة ، فهو أمر يمكن استنباطه من قِدَم كلمة « هيروغليف Hieroglyph » التي تعني حرفياً « نقش مقدس » ، كما أن نشاط الكتابة في جملته لم يفقد معناه الغامض في مجتمع كان ، مثلاً هو عليه الآن ، ولا يزال يحترم الأدباء عمن يعرفون القراءة والكتابة فحسب ، ومن « يؤلفون » عمن يستطيعون الكتابة فحسب . وأخيراً ، فإنه من الضلال أن نستخلص استنتاجاً من الحالة الذهنية للقبائل أو للأناسى الذين ينعنون في نهكم بأنهم « متوحشون » اللهم إلا إذا كان مفهومنا عن الوحشية قد لحق به مؤخراً تعديل جدير بالاعتبار : من ناحية كنتيجة لمنافسة بعض الشعوب المتحضرة للأساليب التي تعد حتى الآن بدائية ، ومن ناحية أخرى لأن تقدم الدراسات الأنثروبولوجية قد تخلص من أفكار معينة دائمة تدور حول « لا عقلية » الثقافة الأكثر بدائية .

وفضلاً عن هذا ، فإن « المتوحشين » الذين دُرست عاداتهم في الأزمنة الحديثة ، هم بالفعل أولئك الذين تعرضوا للفساد باتصالهم بالحضارة الغربية : اتصال كان يميل في بادئ الأمر إلى إفسادهم ثم ، كما يحدث كثيراً ، لا يمهّد لانقراضهم^(٦) . وكانت هناك عادات معينة مقترنة تقليدياً بالثقافة البدائية ، مثل السحر بل حتى العرافة ، وهي لا تعد الآن وفقاً أبداً على تلك الحضارة ، بل بالأحرى تشكل عنصراً من العناصر في كل حضارة . والواقع أن عدم وجودها أو إهمالها ، أو أسوأ من ذلك كله استئصال الأشخاص ذوى العقول المنطقية استئصالاً منظماً لها ، قد يكون العلة لضرر خطير يلحق بالاستقرار الحضارى . وذلك سبب آخر من أجله ينبغي على القراء الغربيين أن يسعوا إلى فهم أفضل لفكر الشرق الذى تحقق فيه انفصال الدين والفلسفة والسحر والعلوم انفصالاً أقل عنفاً مما حدث في أوروبا وأمريكا .

فكرة عصر ذهبي :

إن عاجلاً أو آجلاً سيكتشف الباحث في أصول البحث نفسه أنه هو نفسه يتبصر في احتمال أن نوعاً من تخل عن نعمة ، ونوعاً من ثورة عارمة ، اضطرت إليها الجنس البشرى ، وهو مازال

(٦) لم يوجه الأنثروبولوجيون اهتماماً كافياً لتحقيق تعريف « المتوحشين » أنفسهم لـ « متوحش » وقد تحمل النتائج تفسيراً .

ابن الطبيعة ، لكي يقي نفسه ، « ليتوقف ويفكر » ، ليتحمل أعباء الحرية ، وقد يبدو من مثل هذه اللحظة ، أن التكامل الفلسفي لا بد وأنه بدأ طريقه الأعرج . وقصة الطوفان التي كان يعتبرها أجدادنا الورعون كأسطورة ، قد صارت في نظر خلفائهم المتشككين حقيقة تاريخية . وإذا لم تبرهن اكتشافات سيرليونارد وولي Sir Leonard Woolley في العراق على صحة ما ورد بالإنجيل من قصة نوح وسفينته ، فهي توحى على الأقل بصدقها الرمزي^(٧) وبالنسبة لغرضنا الراهن ، فإننا لسنا بحاجة إلى أن نساءل هل كان ما يطلق عليه « هبوط الإنسان » حدث تاريخي ، هل كان كما يميل « النقد السامي » للإيمان به ، مجرد حدث روحي بحت (أياً كان المقصود) . إن ما نريد أن نسأله هو : هل كان المجتمع السابق لهذا الهبوط يمثل ، كما يُظن عادة نوعاً من « العصر الذهبي » ؟ . لماذا ينبغي أن يكون الطبيعي أو غير المتحضر ، بالضرورة ، أكثر أمناً وشفاء أو أكثر رغبة فيه من « غير الطبيعي » أو المتحضر الذي كثيراً ما يدعى أكثر مما يبرهن . وقد ذكر الأستاذ بيرى Professor Perry في بعض كتب طريفة جداً له ، ذكر حالة افترضت وجود ظروف بشرية سابقة للحضارة ، ليست بعيدة جداً بدرجة لا يمكن تصديقها ، لم يكن للحروب ولا حتى الخلافات بين القبائل وجود على الإطلاق .

ومثل هذه النظرية ، لو كانت صحيحة ، لا تتضمن بالضرورة ، الرأي القائل بأن الحياة الاجتماعية كانت أشبه بقصيدة رومانتيكية طويلة وبقيت على هذا المنوال منذ البداية. وبفحص أقدم قانون تشريعي معروف (ولذا فمن المحتمل أن يكون « غارقا في القدم ») أي قانون حامورابي ، مثلاً ، نخرج بانطباع لا عن المعاملات البسيطة أو العلاقات الإنسانية القويمة ، والمنازعات الشائعة ، أو أساليب الإنصاف الواضحة ، بل ما هو على التقيض من ذلك تماماً ، انطباع عن : مجتمع مناضل ، شديد اليقظة وحكيم ، فيه تشاجر الناس وكان من المعروف دائماً أنهم يتشاجرون بقدر ما يتشاجرون الآن ، ومن المحتمل أنهم كانوا يلجأون إلى القانون مراراً وتكراراً ، ولعل قانون « العين بالعين والسن بالسن » كان القانون العام السائد قديماً برغم أنه لم يكن القانون الوحيد ، إذا حكمنا على أقدم وثيقة قانونية معروفة (والمحافظة الآن في القسم المصري من المتحف البريطاني) تتناول قصة نزاع على ميراث . وكلما كانت الحياة البشرية أكثر طبيعية ، صارت أكثر إيلاماً في كثير من الجوانب . وإذا وجدنا إشارات عن

(٧) أما عن بيان الأساطير المختلفة عن الطوفان فارجع إلى الفصل الثاني من هذا الكتاب .

« هسيود Hesiod أو حتى عند أفلاطون عن « عصر ذهبي » بعيد ، فلسنا في حاجة إلى أن نتقبل ما تضمنته إشارتها إلى أن الحياة كانت فيه حياة نعيم وصفاء مقيمين . و « العصر الذهبي » كما يجتزم به ه . ج . ماسنجهام H.J. Massingham بحثه المقتضب الرائع (٨) . هو ذكرى الإنسان الغامضة عن شبابه هو نفسه . ومن ثم فإننا يجب ألا نحصره في وقت محدود ، ولكن إذا استطعنا أن نسترجع في خصائص الذكريات المشاعر التي خبرها في مرحلة الشباب ، لوجب علينا أن نعرف لأي شيء تكون تلك الفترة ، أعني فترة همّ عقلي وجسدي ، نتمنى كثيراً أن نتخلص منها . « والعصر الذهبي » ذهبي فقط بالتأمل في الماضي ، مذهب فقط من خلال الفحص .